ناج محل - الهند

مفهوم العمارة الإسلامية في الرؤية الإستشراقية

د. وليد أحمد السيد
معماري وباحث فلسطيني
مدير مركز لونارد للتراث والثقافة والفنون بلندن

ارتبط الخطاب المعماري العربي المعاصر بالعديد من المصطلحات والمفاهيم التي شكلت وتشكل أجديانه وكان من أهم هذه المصطلحات مصطلح (العمارة الإسلامية). فما هو معنى هذا المصطلح. وما هي أبعاد استخدامه ودلالاته؟ وما هو أصل نشأته؟

بات هذا استخدام هذا المصطلح غالباً على بعض الاستخدامات النادرة التي استخدمها الرحالة والمستشرقون لوصف العمارة التي شاهدوها أثناء تجوالهم وتوثيقهم لما شاهدوا. حيث نزع بعض الرحالة والمستشرقون إلى إطلاق (العمارة المحمدية)نسبة إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). ومن هنا نشأت فكرة (نسبة العمارة) والذي يتضمنه الاصطلاحان (العمارة الإسلامية) و(العمارة المحمدية) بما تتضمنه قواعد اللغة العربية وأصول الخطاب الفكري العربي. فحين تنسب شيئاً إلى ماهية أو شخص ما فإن ذلك يعني ضمناً احتواء الشيء المنسوب على بعض أو كل خصائص المنسوب إليه. فحين نقول (عمارة إسلامية) فإن ما يتبادر إلى الذهن على الفور ما يعنيه المصطلح بالتحديد وهو (العمارة التي تعكس الإسلام بشكل أو بآخر. أو هي تنطلق من جوهر الإسلام وتعاليمه) وينصرف الذهن فوراً إلى نوع من المثالية التي تتضمنها فكرة الدين والإسلام. فهل عكست العمارة المعنية مكاناً وزماناً روح الإسلام وتعاليمه أو بعضاً منها؟ أو هل كان الباعث لهذه العمارة ونشأتها هي الإسلام كدين؟

الإجابة المباشرة البسيطة: لا. ولعلنا نستعرض بعض الحقائق والأمثلة التالية التي تدعم هذه الإجابة. إذ أن المتتبع لأسس نشأة مفاهيم ومبادئ هذه العمارة جوهراً وناجاً من خلال تاريخها الطويل لا يمكن أن يخطئ ما تتضمنه من الحقائق التالية. وهي ما أثارت زوبعة من الجدل والنقاش بين أوساط المفكرين سواءً من العرب أو من قبل المشككين أو الباحثين من الغرب. ولعلنا نستعرض أبرز الأمثلة المعمارية لنستنبط بعض هذه الحقائق وهي: أولاً: إن العمارة التي نشاهدها اليوم ونعجب بها هي عمارة (صرحية). بمعنى أنها تعكس رمزية فردية وترفاً استثنائياً ولا تعكس إطلاقاً السمة الغالبة لسواد الأمة. إذ كيف يمكن لنا خيال أن ننسب (تاج محل)بأفرا بالهند للعمارة الإسلامية. وهذا الصرح قد أنشئ كضريح أو (قبر)لتخليد ذكرى محبوبة في بلاد لا يجد عامة الناس هناك ما تأكل أو تلبس مع ما يعكسه ذلك الصرح من إفراط في الإنفاق والزخرفة والتشييد؟ فهل يمكن أن يكون الباعث لإنشاء هذا الصرح هو دين الإسلام؟ وكيف يمكن نسبة (مدرسة ومسجد السلطان حسن) لروح الإسلام وتعاليمه إذ يروي المؤرخ المسلم المقريزي أن هذا البناء الهائل قد استنفد خزانة الدولة المسلمة آنذاك لسبع سنوات متواصلة بمعدل إنفاق يومي وصل أربعين ألف درهم؟ وإذا علمنا أيضا أن الغاية من إنشاء هذا البناء الضخم الذي يبدو مضخماً من حيث النسب والتناسب كانت لإنشاء قلعة حربية تقف أمام القلعة التي تقابله أيام الحروب بين المماليك. وهي ما يفسر ضخامة المسجد غير العادية لإنشاء المنجنيق. وحيث تهدمت منارة المسجد أكثر من مرة على رقاب الجالسين تحتها من مصلين وقاعدين. فهل يمكن أن تعكس هذه البواعث والأسباب بعضاً أو كلاً منها تعاليم الإسلام وجوهره؟ ولعل أكثر المباني إثارة للجدل هو (قصير عمرة) بالأزرق بالأردن. بما يحويه هذا المنتجع الصيفي الصحراوي (الذي أنشئ لأحد أمراء الأمويين)من صور عارية مرسومة بالفسيفساء على سقوفه وجدران حماماته الداخلية. مما حدا بالمؤرخين الغربيين - للعمارة الإسلامية- أمثال (اولج غرابار) من جامعة (هارفارد)لدراسة هذا المبنى بالتفصيل في كتابه الذي حمل ذات الاسم. ودعاه للبحث والتساؤل حول ماهية وكينونة الفن الإسلامي وأثار تساؤلات حول وجود التماثيل التي تتوسط قاعة الأسود بقصر الحمراء بالأندلس. هذه الأمثلة وكثير غيرها تتضمن العديد من التناقضات التي لا تنسجم مع روح الإسلام أو تعاليمه. ويندرج تحت هذه الأمثلة الصرحية قصور المترفين من الأمويين بغرناطة بالأندلس. أو القصور العديدة المنتشرة بالقاهرة والتي أنشأها كبار الأثرياء من التجار والأمراء والسلاطين. فهل العمارة الإسلامية هي عمارة بذخ وصنمية وتعكس الأقلية المترفة من الأمة تاركة الأغلبية الغالبة تعيش على هامش الفقر والتاريخ؟ إذ أن كتب تاريخ العمارة الإسلامية تخلو من أي وصف أو توثيق لعمارة عامة الناس. مما يعني أنها كانت بسيطة وبنيت من مواد أقل ديمومة لتؤدي وظيفة الإيواء لفترة عمر قصيرة. فهل يشجع الإسلام على الخلود في الأرض أم أنه حث على العمل والاستعداد لدار أخرى. أو الانصراف لأمور أخرى من علم ودين؟ الواضح أن جميع هذه الأمثلة المعمارية لم تبن خلال فترة الإسلام الأولى (أيام الرسول أو الخلفاء الراشدين) وإنما بنيت أيام الترف والانصراف إلى الملذات والدنيا مما فوض دعائم الإمبراطورية الإسلامية.

وإذن. فإذا كان ذلك كذلك. وكان مفهوم (العمارة الإسلامية) استشراقياً. بمعنى أنه اختراع استشراقي أطلقه الرحالة والمستشرقون على عمارتنا وتبناه مفكرونا وباحثونا دونما تمحيص. فما هو البديل لهذا المفهوم. وكيف ينبغي أن نفهم هذه العمارة وأن نسميها؟ أحد البدائل الأخف وطأة والتي يتداولها البعض هما مصطلحان: أولهما أن نقول (عمارة المسلمين) وهذا بالتالي ينفي المثالية التي يتضمنها مصطلح (العمارة الإسلامية). أو (العمارة المحمدية) بنسبتها إلى رسول الإسلام. بمعنى أن الناتج من العمارة حينئذ يخضع للأخذ والرد وينسب إلى خطأ البشر لا إلى جوهر الدين وتعاليمه. والثاني هو ما يتداوله المفكرون من الأكاديميين في الأوساط المعمارية. وهو أن نقول (العمارة في مضمونها الإسلامي)وهذا يؤدي ذات الغرض السابق.

وقد يتساءل أحد القراء الكرام لهذا المقال فيقول: وما الداعي لهذه المقدمات عن عمارة الإسلام أو المسلمين . مهلاً أخي القارئ: فإن ذلك قد تجاوز حدود الصفحات المكتوبة. ولم يؤثر فقط في الفكر والخطاب الفكري والمعماري المعاصرين. وإنما شمل أيضاً البيئة المبنية وقواعدها ونظمها. إذ أن مصطلح (العمارة الإسلامية)بما يتضمنه من نسبة العمارة للإسلام كدين. قد قاد إلى الاعتقاد بضرورة وحدة العمارة التي تنبع من الإسلام بغض النظر عن المكان أو الزمان. انطلاقاً من وحدوية الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان. وهي فكرة جل خطيرة في أصول العمارة ومبادئها. إذ تلغي فكرة الإقليم المصغر والعوامل المحلية. وتقود إلى فكرة (العالمية) وتمهد لتسلل الأنظمة المعمارية الدخيلة من الأقاليم المجاورة. وفوق ذلك كله تتضمن سيطرة التشريع على قوانين البيئة المبنية الفيزيائية الحسية. ومن هنا تنشأ قناعات ومفاهيم صورية حرفية لدى المعماريين المعاصرين. بحيث ينزع البعض ممن يعجز عن إدراك الآلية التي تم بها إفراز الموروث المعماري من الفترات السابقة إلى التقليد الأعمى الحرفي بغض النظر عن المكان أو الزمان تحت غطاء أن العمارة الإسلامية واحدة على طول أرجاء العالم العربي الممتد. مما يجيز استخدام مفرداتها بغض النظر عن عوامل نشأتها أو ملاءمتها. ومن هنا فإن ما حدث بالضبط في العالم العربي حديثاً. أنه نتيجة للتداخل الثقافي مع الغرب. وضمن حالة الضعف الحضاري التي تنتاب العالم العربي فقد كانت (العمارة الإسلامية) بمفرداتها و(كناتج) (كآلية) هي النموذج للاحتماء. وأصبحت هناك دلالات سطحية لفهم وقراءة العمارة (الإسلامية). إذ أضحى(القوس) أحد دلالات العمارة (الإسلامية). أو إذا احتوى المبنى على (فناء داخلي) فإنه بعد إسلامياً. وكأن الرومان أو اليونان أو الشعوب القديمة أو الحديثة لم تعرف (الفناء الداخلي)بل عرفه العرب والمسلمون وحدهم؟؟ وهناك من هم أكثر سطحية باعتقادهم أن المبنى الذي تحتوي واجهاته - بالإضافة إلى الأقواس والمشربية- على لونين من الحجر بشكل متتال بما يسمى (الأبلق) هو ما يعكس(العمارة الإسلامية)وعلى هذا فإن معظم مباني العواصم الأوروبية كلندن مثلاً والتي تزخر (بالأبلق) إبان عصر النهضة أو العصر الحديث هي (إسلامية) من وجهة نظر هؤلاء؟؟؟ بينما يلجأ البعض من المعماريين للنقل الحرفي لبعض أجزاء المباني التراثية. مما يعني التقوقع ضمن التراث. أو هي القراءة التراثية للعصر كما يعمد محمد عابد الجابري إلى وصفها. هذا جانب من الأزمة التي كرسها المفهوم الاستشراقي لمصطلح (العمارة الإسلامية).

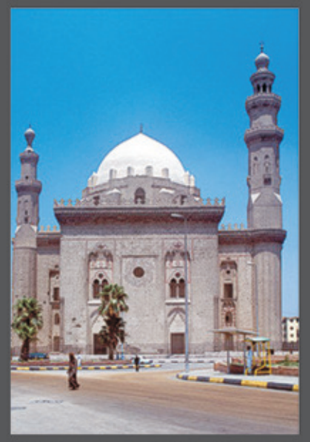

مسجد ومدرسة السلطان حسن - القاهرة

فماذا نقول إذن إذا أردنا أن نصف العمارة العربية في القاهرة أو القدس؟ يرد المعماري والمخطط التركي (دوجان كوبان) على هذا التساؤل (وهو من أبرز الداحضين لفكرة عمارة إسلامية) بأننا ينبغي أن ننسب العمارة بدلالة الزمان والمكان. وهكذا نقول: (العمارة في الفترة المملوكية أو العثمانية في القاهرة). أو (العمارة في الفترة الأموية في دمشق). وهذه العبارات الطويلة هي السبب الرئيس بالضبط الذي حدا بالرحالة والمستشرقين إلى التعميم وإطلاق لفظة (العمارة الإسلامية) أو (العمارة المحمدية). وخا ذلك بالعديد من المعماريين العرب المعاصرين المنقادين إلى رؤية التراث والعمارة الموروثة من الماضي برؤية استشراقية. بالصورة التي نقلها الاستشراق بآليات إنتاج المعرفة وضمن أطره الفكرية الغربية ومن خلال الإطار المعرفي الذي تشكل من خلاله وشكل إحداثيات فكره كأداة وكمحتوى. ■